

في الشعر الافريقي المفاسر

جمال احمد

تنشر الصحف في العواصم الافريقية وفي باريس شعر ايتميز بافريقيته، وعلى الذين يرتابون في وجود شخصية افريقية ان يقرأوا بعض هذا الشعر فهو تعبير عن روح افريقيا الحديثة، وعن تطلعها الجديد، وعن الذي ترضاه والذي تأباه . ولا على القارة ان لم تنجب حتى اليوم شوقها، فهي كما تعرف بابل الجديدة : يكتب اهلها بلغات افريقية عديدة وثلاث لغات اوربية هي الفرنسية والانكليزية والبرتغالية ، وسيظل النوابع من شعرائهم يخاطبون اقاليمهم المفردة الى ان يتاح لهم ما اتيح لشوقي ونازك الملائكة من صيرورة، لانها كتب بلغة تشد اوطان العرب كلها ، او يتاح لهم ما اتيح لأودن ودلن طوماس ، لانهم كتبوا بلغة تشد طرفي المحيط الاطلسي وتنتشر في بلاد رابطة الشعوب البريطانية ، وما هي بريطانية الا في هذا اللسان الذي به تنطق . ومن شواهد هذا الذي نقول ان الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية مثلاً — كسنغور وديوب — يكاد بعضهم ان يجد طريقه للمختارات العالمية ، بينما الذين يكتبون بلغات الاقاليم لا تعرفهم الا الاقلية من المهتمين بالشعر الافريقي . وقصة اللغة في القارة معضلة ما فرغ لها كثيرون بعد .

وشيء آخر لم يتح للشعر الافريقي ان ينتشر ويزدهر ، هو انه لم يجد طريقه للنشر الا على يد الصحف ، وكلها حديثة العهد . فشعر نيجيريا مثلاً ، وهي البلاد التي عرفت بعد ذكر وعز مكاناً في القارة ، لم ير النور مكتوباً الا عام ١٩٤٩ ! جاءها هنري سنونزي محرر « الشؤون الافريقية » يبحث عن آثارها المكتوبة والسارية على اللسان ، فعثر على شعر اثار اهتمامه ، وكان من جمائله ان عرف قراء اللغة الانكليزية — فيمن عرفوا — شاعر نيجيريا الراحل دنس اساديبي ، صاحب المجموعة الشعرية الشهيرة الآن ، « افريقيا

في الشعر الافريقي المعاصر ٦٥

تغني ، وهي اول مجموعة نشرت في ذلك الاقليم الذي عرف بعضا من اقوى الشعراء في القارة بعد ان ظهرت « بلاك اورفيوس » صحيفة الفن الخالص التي تصدر عن دائرة الدراسات العامة في الجامعة في عبادان . وكذلك الحال في الاقاليم الشرقية للقارة والاقاليم الوسطى . كان شعراؤها يكتبون بالسواحلية ، وهي لغة افريقية معربة فيما يقول البعض وعربية مؤفرقة فيما يقول الآخرون ؛ وكان صعباً ان ينشر هذا الشعر ، ولم يزل كذلك ، الا في ترجمات قليلة لا تنصفها ، فيما يقول الذين يعرفون الاصل .

لكن الحال لم تكن كذلك في الاقاليم التي ثقفت ثقافة فرنسية . فقد عرف الجمهور الفرنسي كثيراً من شعر الزنج في المارتنيك وفي غرب افريقيا وملافازي : اذ يسرت باريس للمهاجرين من ابناء الاقاليم كل سبيل للنشر ، كما يسرت لهم كذلك المناخ الفكري الذي لا تستطيعه غير باريس ، وتتميز به : عرف عنها الشباب المهاجر مكان الشعر في التعبير عن النفس الانسانية ، وليست صدفة محضاً ان المدرسة الشعرية الذائعة الصيت كانت وليدة مدارس من الشعر عرفتها اوربا اول ما عرفتها عن باريس في العصر الحديث . الزنجية ابنة المدرسة الرمزية في شق ، والمدرسة التعبيرية في شق . اذاع خصائصها واقتدارها على التعبير عن الروح الزنجية الطامحة الحانقة اندريه برتون ، كاهن المدرسة التعبيرية وشيخها الاول . وليس صدفة محضاً ان ليوبولد سنغور ، اوفر الشعراء الافريقيين صيتاً ، كتب الشعر ونشره باللسان الفرنسي في الوطن الفرنسي ايام كان يعمل في التدريس هناك . على ان تفوق الزنوج الفرنسيين في الشعر على اخوانهم في بريطانيا لا يعني ان هناك شيئاً في التربية الفرنسية يعين على الشعر : الله يعلم ان التربة الانكليزية لا تقل خصوبة عن اختها الفرنسية في هذه السبيل . قلب الحقيقة هو ان فرنسا كانت تريد من نشاطها عبر البحار ان تخلق افريقيين فرنسيين في كل شيء ، وقل فرنسيين افريقيين ان شئت : في نبيذهم وشعرهم ولباسهم ، ولم تلق لهذا حجاباً بينها وبين ذلك الشباب المهاجر . وما كانت انكلترا كذلك : كانت تريد افريقيين يتعاونون معها في الادارة والتجارة والزراعة لتعيش هي رضية سعيدة ، وتبعد الافريقيين عن بداوتهم الاولى ، بقدر يتيح لهم ان يتعلموا ويكدهوا وهم في افريقيتهم لا يرحونها ، الا اذا اقتضت هذه النشاطات ان يتخلوا عن شيء او آخر يعوق سيرها لامام .

لم يهاجر الى العاصمة البريطانية شباب ليحيا ويرتق بين الانكليز ، وهاجر لباريس شباب لقيم هناك ويدوب في الحياة فيها ، ولا يذكر الا من حين لحين وطنه الام واهله هناك . واثار النوايع من هؤلاء حب وتقدير الطليعة الفرنسية : قرأت هذه الطليعة شعر ديوب واخوانه ، ورأته على ضوئها النائر . ولن يكتمل بحث عن الشعر الزنجي ان لم يذكر عوارف سارتر عليه : فقد كتب بحثا يقدم به اول منتخبات للشعر الزنجي ، يعد اليوم بدءا للدراسات الشعرية في القارة ، ونافذة مشعة يطل الواحد منها على نوازع الشعر عند الشعراء الافريقيين ، ولا اعرف مقالة لقيت من الثناء والاعجاب ما لقيته مقالته « اورفيوس الاسود » ، ولعل خير شاهد على هذا هو ان الصحيفة الزاهرة التي اشرت اليها من قبل اخذت اسمها من هذا المقال ، ولعبت دورا مركزيا بعد هذا في اذاعة الشعر الزنجي حتى اصبح اليوم جزءاً متمماً للتراث الشعري كله في فرنسا .

للقارئ العربي ان يسأل ، ولا عليه ان فعل ، كيف تأتني للافريقي ان يكتب شعراً استحق هذه العناية من كبار اهل القلم في القارة الاوربية والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ؟ فالثقافة الافريقية ، فيما يعرف الناس ، لم تبتدع الكتابة في الذي ابتدعت من اشياء ؛ لم تعرف الكلمة مكتوبة ، كانت تنقل ما تشاء بين القبائل من رسائل بالطليل خلال الغاب والشجر ، كانت تكتب بالصوت لا بالحرف . فكيف تأتني لثقافة هذا شأنها الاول ان تكتب شعرا حقيقا بان يترجمه الكتاب ويردده القراء ؟ ما عرف الافريقي الشعر كما عرفه الاغريق والعرب هؤلاء ممن وضعوا الشعر مكانا عاليا في وسائل التعبير عند الانسان . للقارئ العربي ان يسأل عن تقاليد الشعر في القارة الافريقية ، وفي البلاد التي ساقه اليها الناس رقيقا يفلح الارض ، من المارتنيك وجزر الهند وهايقي - دعك من الولايات المتحدة . له ان يسأل ، ولكنه يخطئ كثيراً ان انتهى الى ان الشعر بضاعة ازجاءها الاوربيون اليه ، كما ازجوا السيارة والمشط . لا اقصد بهذا الى القول بان الافريقي يغني قبل ان يلتقي بالاوربي (والشعر في جوهره غناء) ، لا اقصد لهذا : فغناء الافريقي يكاد ان يكون اول خاطر يجيء في البال حين يذكر لك اسمه ، لكني اريد ان تذكر شيئاً مما عرفه الباحثون الان عن « القوة السحرية للكلمة » عند الافريقي ، وارانى

٦٧ في الشعر الافريقي المعاصر

مغرى هنا بان اعيدك لكتاب « مونتو » ، اي الانسان ، كتاب يعده الذين يعملون في حقل الثقافة الافريقية خير كتاب اخرج للناس حتى الان في موضوعه ، وفيه فصل كامل عن سحر الكلمة عند الزنجي .

يحدثك جان في فصله الخامس عن مكان الكلمة عند الافريقي ، ويدلل لك بشواهد ما جمعت على هذا النحو من قبل ، على ان الحرف سبق الخلق في هذه الثقافة ، وينتهي الى القول بان كل « انسان » يملك قدرة اله التوراة الذي قال للنور كن فكان ، ولا يعوقه عن هذه القدرة الا « انسان » آخر اقدر منه على خفايا السحر في الكلمة ؛ يقول « انسان » للسماء اسقطي فتسقط ، لا يحول دون هذا الا ان « انسانا » آخر ذا حول اطول وباع اوسع قال لها ظلي حيث انت ، فظلت . « الكلمة هي القدرة والقوة » ، يقول شاعر ساحل العاج برنارد داري ، « انا ابذر الحب بالحرف » ، لا يمكن للكلمة ان تنمو دون عون : « البذر وحده لا يكفي ، فحبة الذرة لا تخمر وحدها وتنمو ، الكلام والغناء يقدران على اعانتها ، لان الكلمة هي التي تحيل البذرة ذرة يأكلها الناس ، وتعين الفاكهة على النمو ، والبقرة على التناج » . الحرف القدرة والحرف الشعر .

وفيم يكتب الافريقي ؟ يكتب في كل لون من الوان الشعر يكتب فيه غيره : في الطبيعة ، والعلائق البشرية ؛ ولكن موضوعا يستأثر بوجودان الشاعر الافريقي الحديث ، هو هذا الصدام بين افريقيا الطالعة واوروبا التي يخالها الشعراء في طريقهم لا تدعهم ؛ يمثل هذا شعر « البلوز » او الشجن عند زنوج الولايات المتحدة ، ويمثله شعر « الزنجية » في عهدها الاول حين كان دعاة ينقمون على الحضارة الاوربية كل شيء ، كما فعل ايمي سيزار وسنغور اول الثلاثينات . ولعلي الخصب جوهر الامر حين انقل لك بعض الذي كتبه سارتر في هذا الصدد في تقديمه المختار من شعر الزنوج ، قال يخاطب الاوربيين : « ماذا كنتم تريدون للزنجي ان يفعل ، وقد ازاح التاريخ من فمه الكمامة التي كانت تمسكه ؟ احسبتم ان الشفاء السود ستغنى بعوارفكم عليها وماثركم الكثيرة ؟ وتلكم الرؤوس التي طحنها اباؤنا طحنا في التراب ، احسبتم ، وقد رفعت الان وقد نكست طويلا ، ان تروا الاعجاب بكم في اعينها ، وان تقرأوا الحب في وجوهها ؟ لا ، ما فعلت هذا » . وكان سارتر في هذا يكتب عن معرفة لا تخيل . قرأ في المختارات التي اشرف عليها سنغور قراءة ذكية ، وخلص الى هذا الذي يقوله والى الآراء التي تضمنتها مقدمته . والذين قرأوا هذه المختارات من شعر

الزئوج في غرب افريقيا وملاقازي رأوا ولا شك العنف الذي يتسم به بعض هذا الشعر
 الثائر ، « ورأوا ايضاً هذا التمجيد للسواد وكل ما اتصل بالسواد ، لان اللون كان الفرق
 الملموس بين الزنجي وسائر الناس ، ما تميز احد عليه الا بلونه » ، وكان حقاً ان يشغل
 اللون عليه عقله وعاطفته .

تمثل هذه المختارات الفترة الحانقة الحاقدة من تطور الفكر الافريقي ، ولكن الشعر
 مشى بعيدا منذ ذلك الحين . هدأت عاصفته الا قليلا ، واتجه لغير الحق والحقد ؛ ترك
 التمجيد الخطابي للقارة وتراثها القديم ، وشرع يكتب اليوم في هدوء الواثق ، يأخذ على
 الاوربي ان جهله وان سخر من حياته ، ويشير عليه ان يتعرف للطمأنينة التي تسود الحياة
 الافريقية والحيوية الخصبية التي يجدر بالاوربي ان يقتبس منها ان اراد خلاصا لروحه
 المكدورة المتعبة من فعل السنين وسحق الآلة ؛ ويكتب في المواضيع الانسانية البحتة التي لا
 يكون شعر الا بها ان اراد ان يستأهل اسمه . وسترى قليلا من هذا الذي نقول في النماذج
 التي سنضعها الآن بين يديك ، واولاها لشاعر من نيجيريا ، والثانية لشاعر من السنغال هو
 رئيس جمهوريتها ، والثالثة لشاعر من ملاقازي .



غبرييل أوكارا وضحكت ثم ضحكت

اغنياني لديك سيارة ،
خنقتها سعلة
فهي تدور ،
وضحكت ثم ضحكت .
ومسيري فوق ارضي قبل ميلادي
كان لا يسمو لادراكك ،
وهو ادراك محيط .
اذ مسيري غير انساني .
وضحكت ثم ضحكت ثم ضحكت .
من اغاني ضحكت
من مساري قد ضحكت
فرقصت مع دق الطبول
رقصاتي وهي سحرية .
وسرت في الليل انغمي اليك
وهي ترجوك : تعال .
اصبع في اذنك ،
وعزوف ، ما كفاك ،
رحت تغفو هازلا
وضحكت ثم ضحكت ثم ضحكت .

●

ضحكتَ ثم ضحكتَ ثم ضحكتَ .
لكنّ ضحككَ كان ثلجاً ، فتجمّد
في النهاية .

كانت احشاؤكَ هكذا ،
فانظرُ اليها تتجمّد ،
مثلَ ضحكائك .

واتى صوتك من بعد ، تجمّد ،
ثم اذناك ، وعيناك ،
لم يعد في الطوق ان تضحك ،
وتدلّسى خشباً منك اللسان .

جاء دوري ، ها أنا اضحك منك :
ضحكاتي ضحكاتُ صاحباتُ دافقاتُ
حيويّة ؛ قهقهاتُ عاليات
ما رأت ثلجاً يجمّدها .
لا ولا اعرف آلة
خفقتُها سعة
فهي تدور ،
لا تسير .

ضحكي نارُ العيون
قبسُ الارضِ ، لهبُ من سماء
نارُ بحريّ ازرقَ ، نارُ نهر
يمنع الكُلّ الحياة .
من انهر العذاب ، اشجار الخضر ،
من وحوش الغاب ، اسماك المجاري
ضحكتي منها جميعاً .

وهي ان جئت قريباً ، قد تعين ،
قد تذيب الثلج فيك :
فهي حرى ، وهي جمر .
قد تحيل الصوت صوتاً وتعين الاذنين ،
كلها أسرى ثلوجك .
اقرب تفتح العينين منك
والشفيتين واللسان .
وتواضعت اخيراً ، كان اولى من زمان ،
وهست ترجو ، همسة الحاني الودود ،
« لم هذا ؟ » قد سألت
فاجبتك نقول :
انت لم تنظر اخي .
لو فعلت يوم رجوناك رأيت :
اننا جذوة من ارضنا ،
قطعة لا ننقص .
تشدنا اليها هذه الاقدام
عارية .
لا حجاب بينها
لا خفاء .

ليوپولد سيدار سينغور الى نيويورك

نيويورك - رأيتك بداهة فاضطربت لهذا الجبال ،
 حرت في فتباتك ، ارنو لسبقانها الطويلة الذهبية ،
 وراعتني عيونك المعدنية بادىء الامر وخجلت ،
 ثم انعمت عيني في بسمتك ، انها جليد ، ففهمت .
 الم ممض في الصدر في الاعماق يخرق كل شارع ،
 والعيون تظللها الكفوف تراعي الناطحات ،
 بعيدة خسفت وراءها شمس السماء ،
 وضوءك كله فوسفور ، وخلالها ابراج البيوت
 حمراء كالغيط ، كالكبذ المثار .
 رؤوسها طعنت كبد السماء ، وبجنبها اخواتها
 تعلق وتسخر بالزوابع والعواصف ،
 لا تهاب ، عضلاتها حديد .
 واهابها استوى ثم نضج ، ولا تحترقه خارقة .
 راح اسبوع واسبوع يليه ، فيهما طرقت مانهاتن
 وانقضى ثالث من بعد ،
 احتوتني بعدها رجفة
 كانهض النمر شد الجوع اعصابه ؛
 اسبوعان ، لا انهار ، لا حقول ، لا شجر ،
 على النقيض ، تساقط الطيور
 موني فجأة على السطوح المرمدة ،

لوّث الجِرّ الدخان ، سممة .
اسبوعان ، ما رأيتُ طفلاً ، تزين وجهه ابتسامة ،
يده في يدي ، يرنو اليّ في شقاوة ، ارنو اليه
في حنان .
ما رأيتُ ثديّ أمّ ، كلّ الذي اراه سيقانٌ من النايلن ،
الاثداءُ لا تعرقُ هنا ولا السيقان ، لا تفوح ،
ما سمعتُ مذّ قدمتُ لفظةً حيّةً عطوفة ،
الشفاه ما هنا عدم ،
والقلوب تُشتري نقداً وعدّاً في الفبارك والمصانع .
لا كتابٌ يحمل الحكمة من صدرٍ لآخر ، كلّها ذكية .
لياليّ الارق ، يا لياليّ مانهاتن ،
تتلوين والضوء يلهب ظهره كالسياط ،
ونفير السير حولنا ، يسوق الليل سوقاً ، لا سلام .
كلّها اصواتٌ جوفاءُ ، لا معنى لها ، هباء .
والمياه السودُ عكّرى في الانابيب خفية ،
تحمل الحبّ عظاماً وجلوداً وقذاره ،
اول الليل نظيفاً كان اذ صنعوه ،
كلّهُ صحة . وفي الصباح
ما اشبه الامواه بالانهار
فاضتْ بالجلث ، جثث الصغار ،
اولاد الخنا .

نيويورك اسمعي ،
اسمعي ، اقلّ لك يا نيورك :
دعي الدم الاسود ينساب انسياً في عروقك ،
دعيه ينصبّ انصباباً في دمك ، في كلّ جارحة ،

صدئت جوارحك ، أضت حديدا . دمتنا
زيت الحياة .

الدم الاسود ان خلتيه يعطي جسورك
حنية الارداف ، اطرى من زواحف .
استعيدوا الان آماداً مضت

واعيدوا معها العيش الجميع

بين اسد الغاب ، ابقار القرى ، قش الحقول :
كلها كانت كذلك .

كنا جميعا واحداً ، لا ترى شقاً ولا فصماً بها .

كانت الاعمال شطراً من ذكاء العاملين ،

كل فكر بعمل ، كل اذن بفؤاد ، ارتباط الحسن بالشارة ،
هذه انهارك تهمس همساً

عطر تمساحها ، وخراف البحر اعينها كامواه السراب .

صفارة الانذار من ابدعها ؟ لا ، اكسروها .

افتحوا القلب لابريل ،

انظروا قوس قزحه ، انظروا الوانه ، ازهاره ،

وافتحوا آذانكم ، فوق آذان الجميع ،

تسمعوا صوت الاله ،

خلق الارض وابعاد السماء من ضحكة

في ساكسفون .

ستة ايام وراح

يومه السابع يغفو وينام

نومة عظمى ، كنوم الزنوج .

يكفيكم ابريل .

جان جوزف رابرندر لاعبا النّساي

نايك

اقتطعته من ظنبوب عجلٍ ذي خوارٍ
وصقلته صقلا على رابية جدباءٍ
سأطت الشمسُ حوافيها
نايه

صبغ من قصب يرجف في النسيم
قدّ القلود فيها قرب ماء جارية
سكرت باحلام القمر .
تلعبان ، كلّ نايه ، معاً ، في عمق اعماق السماء
وكأنما امسكتنا بيديكما ذاك القارب الدائري
انكفا عند شطآن السما ،
وجهدتما ولعبتما تسعيان
تنقذانه من يومه
مصيره :

لكن ،

اتسمع النواح في الاغاني الالهة ؟
اتسمعه آلهة الرياح ، آلهة الارض ،
ربة الشجر ؟
اتسمع الغناء والشجن
آلهة الرمال ؟

نايك

فيه من عجله اثر
تأتيك منه انغام عليها ثورته ،
تجري الى ارض الخراب
وتعود جارية ،
ملفوحة من ظما ، ضامرة من سغب .
الى اين ، لجذع نخلة
لا ظل فيها ، لا ثمر ، لا ورق .
نايه

لدنة كأصلها القصب
تنحني ، اذها ثقل عصفور عبر :
ما نفش الريش عليها ولد ،
ما عبث . لكننها غريبة
بعيدة عن كنها
ترعى الاطلال ، تبحث عن عزاء ،
لدى المياه الجارية .

نايك يأخذني ونايه
كل على اصوله ينتحب
ويحملان الندب في انغامكم
حزنى مريرة .